الأدارسة في تاريخ المغرب

ثابت النسب وقواعد الانتساب

محمد البركة

يعد القرن الثاني الهجري قرن التحول والتبدل في الجغرافيا السياسية والمذهبية للعالم الإسلامي، نظرا لطبيعة العلاقات التي صارت تربط أطراف هذا العالم، حيث تراوحت علاقة بلاد المغرب ببلاد المشرق بين الوصل (فكريا ومذهبيا) والفصل (سياسيا)، علاقة أثمرت قيام إمارات مستقلة، أسهمت في ظهورها عوامل عدة (منها: وصول المؤثرات المشرقية، البعد الجغرافي، التعدد القبلي، الزعامات المحلية، الزعامات الوافدة، ...)، نتج عنها انتقال بلاد المغرب من التعايش القبلي والمذهبي إلى التعايش السياسي المفضي للوحدة السياسية والمذهبية.

ولبيان تاريخ الأدارسة بالمغرب، يمكن العودة إلى عدد من المصادر منها **كتاب الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس** لابن أبي زرع الفاسي، **وكتاب جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس** لأحمد ابن القاضي المكناسي ... **(الوثيقة رقم 1)**

وإلى عدد من المراجع منها **كتاب الإمام إدريس مؤسس الدولة المغربية** لعلال الفاسي وعبد الله كنون وآخرين، وكتاب **تاريخ المغرب تحيين وتركيب** إشراف محمد القبلي ... **(الوثيقة رقم 2)**

سياق التأسيس: (العصبية المحلية والنسب الشريف)

يعود تأسيس دولة الأدارسة إلى إيواء قبيلة أوربة لإدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب بعد فراره من معركة فخ ببلاد الحجاز يوم السبت 8 ذي الحجة عام 169هـ/ 785م. حيث دخل المولى إدريس في البداية إلى **طنجة** ((وهي يومئذ قاعدة بلاد المغرب ... فلم يجد بها مراده، فرجع ... حتى نزل **مدينة وليلي**)) **(الوثيقة رقم 3)**، رفقة مولاه راشد بن منصت الأوربي عند أميرها إسحاق بن محمد بن عبد الحميد وذلك في غرة ربيع الأول سنة 172هـ/ 788م.

بعد أن أظهر إدريس بن عبد الله لأمير أوربة أمره، وعرّف القبيلة بقرابته من رسول الله ﷺ، **بايعوه أميرا** عليهم يوم الجمعة 4 رمضان 172هـ/ 5 فبراير 789م، لتبايعه باقي القبائل مثل صنهاجة البرنسية، ومكناسة تسول، وملوية، وغمارة، وبذلك تمكن الأمير المولى إدريس الأول من تشكيل قوة عددية لبداية حملاته الهادفة لإخضاع عدد من المناطق المجاورة.

تلقت الخلافة العباسية توسعات إدريس بن عبد الله بنوع من الخوف من منافسته لها، فأرسل الخليفة هارون الرشيد رجلا يدعى سليمان بن جرير الشماخ لاغتيال إدريس، وهو ما تم عام 177هـ/ 793م، فكان لزاما انتظار كنزة النفزية زوجة الأمير إدريس بن عبد الله إلى أن تضع حملها، حيث أوصى شيوخ أوربة راشد بن منصت الأوربي بتدبير شؤون الدولة قبل أن يتم اغتياله بتدبير من إبراهيم بن الأغلب، تطلعا للقضاء على نواة دولة شريفة النسب الناشئة ببلاد المغرب.

ولما بايع الأَوْرَبيون الأمير إدريس الثاني بوليلي عام (188- 213هـ/ 803- 828م)، سارع العباسيون إلى التدخل مرة أخرى عبر حلفائهم الأغالبة بإفريقية، لزعزعة القاعدة القبلية للأدارسة، لكن لم يتحقق من ذلك شيء.

تأسيس فاس: (إقامة العمران وتأمين الإنسان)

إذ لما ((رأى ادريس أن الأمر قد استوثق له وعظم ملكه وكثر جيشه وضاقت المدينة، عزم على الانتقال، ... فركب في خاصة من قومه ورؤساء دولته وسار حتى وصل إلى جبل زلاغ فأعجبه ارتفاعه وطيب تربته واعتدال هوائه وكثرة محارثه))، فاتخذه عام 192هـ/ 808م مقرا له حمل اسم (مدينة) **(الوثيقة رقم 4)**، حيث أحاطها بالأسوار، والأبواب، ودار الإمارة، والقيسارية، والأسواق، وأقام بها دار السكة، ومكّن الناس من توسيع بنيانهم داخلها.

في سنة 202هـ/ 818م هاجر أهل ربض قرطبة إلى فاس هربا من متابعة الحَكَم لهم على إثر ثورة الربض، فاستوطنوا عدوة الأندلسيين، في مقابل عدوة القرويين التي خصصت للوافدين من القيروان. إضافة إلى الوافدين على المدينة من الأمازيغ والعرب واليهود من مختلف الفئات، حيث استطاع أن يستميل إلى جانبه من يصلح منهم للخدمة ضمن خِطط الوزارة والكتابة والقضاء ... **(الوثيقة رقم 5)**

لم تقف جهود الأمير إدريس الثاني عند هذا الحد بل تُوجت بتوجيه عدد من الحملات العسكرية نحو تامسنا والسوس وتلمسان بغاية ترسيخ نفوذ الدولة واستمالة القبائل، مما أسهم في تنشيط التجاري بين فاس وتلمسان ونكور وسجلماسة، ومراقبة الطرق الرابطة بينها وبين شالة وأغمات ونفيس وطنجة وسبتة.

نظام الحكم: (رسم القواعد وإدارة الولايات)

سارع الأهالي والقبائل بعد وفاة الأمير ادريس الثاني سنة 213هـ/ 828م، إلى بيعة الأمير محمد بن إدريس (213- 221هـ/ 828- 835م)، الابن الأكبر بين إخوته الاثني عشر، وهذا يوضح تبني الدولة منذ بدايتها نظام حكم وراثي قائم على تولي الابن البكر لشؤون الدولة، تأمينا لوحدة البلاد وصيانة لها من الفتنة.

وبتوجيه من كنزة جدة الأمير محمد بن إدريس، عين ثمانية من إخوته ولاة لأقاليم البلاد، وأبقى هو على منصب الإمامة بفاس ونواحيها، وهو ما يكشف عن اعتماد الأدارسة أسلوب تقسيم البلاد إلى ولايات رغبة في إحكام السيطرة. **(الوثيقة رقم 6)**

لكن سرعان ما سارت الأمور على غير ما كان مطلوبا، حيث واجه الأمير محمد بن إدريس ثورة أخيه عيسى ببلاد تامسنا وأفشل محاولته للانفصال، قبل أن يخلفه في الحكم علي بن محمد (221- 234هـ/ 835- 848م)، الذي عرفت فترته هدوء، كما في عهد يحيى بن محمد (234- 245هـ/ 848- 859م)، الذي تقوت الدولة في عهده، وتزايدت المنشآت العمرانية داخل فاس وفي أرباضها، من قبيل جامع القرويين. **(الوثيقة رقم 7)**.

لكن بوادر الضعف بدأت تظهر في دواليب الحكم منذ عهد يحيى بن يحيى (ت. 245هـ/ 859م)، الذي أساء تدبير شؤون الدولة، فثارت عليه العامة بفاس، فتفككت الأقاليم على أيدي إخوته الذين استمالوا القبائل، في وقت تعاقب فيه أمراء ضعاف على حكم العاصمة فاس، رغم محاولة الأمير يحيى بن إدريس بن عمر استدراك الأمر؛ لكن دون جدوى نظرا للتدخل الفاطمي والأموي الأندلسي في شؤونها.

جامع القرويين: (العبادة والتعلم)

يعد بناء **جامع القرويين** **(الوثيقة رقم 8)** على يد فاطمة الفهرية بنت محمد الفهري القيرواني الشهيرة بأم البنين سنة 245هـ/859م استجابة ملحة لحاجة الناس إلى أماكن العبادة أولا والتعلم ثانيا، حيث أسهم بناؤه في التعجيل بإقامة الحلقات العلمية وإعطاء الدروس التي كان يحضرها الطلبة والمهتمون، من كل بقاع العالم، مما جعله يتحول إلى أول جامعة حافلة بالعلم والعلماء.

وقيام فاطمة الفهرية بإنفاق مالها الذي ورثته من أبيها وزوجها على بناء جامع القرويين، يدل على وجوه البر والخير التي تنافس الناس فيها وقتئذ، وعلى حاجة الناس بعد توافدهم على المدينة إلى مسجد يتسع لهم، حيث بدأ حفر أساس جامع القرويين والعمل على بنائه بمتابعة وإشراف الأمير يحيى الأول، على مساحة أربع بلاطات وصحن صغير به بئر، فضلا عن صومعة غير مرتفعة بموضع القبلة.

صار الجامع جامعة فيما بعد، يضم نظام الكراسي العلمية المتخصصة، المحفزة للطلبة والأساتذة، وخزانة للكتب، جمعت عدد من المخطوطات في علوم عديدة مثل الطب والرياضيات والفلك وغيرها، تخرج منها عدد ممن العلماء من المغرب والأندلس وغيرهما.

فاس خلال عصر الإمارات الزناتية والصراع الفاطمي الأموي

بعد ضعف الأدارسة، صارت فاس محل نزاع بين الأمويين بقرطبة والفاطميين بإفريقية، حيث ضموا المدينة لهم اعتمادا على بعض قوادهم بالمنطقة، فقد كان موسى بن أبي العافية المكناسي من أبرز قوادهم الذين ساعدوهم على إنهاء دولة الأدارسة طمعا منه في توليها، إلا أنه لما منع من ذلك، أعلن ولاءه للأمويين بالأندلس.

وابتداء من عام 309هـ/ 921م صارت فاس في قبضة الفاطميين، حيث انتهت الدولة الإدريسية بموت آخر أمرائها الحسن الحجام سنة 311هـ/ 923م، وإجلاء ما تبقى منهم نحو قصر النسر بالشمال، وهناك حاولوا إحياء دولتهم لكن الحضور الأموي أتى على ذلك سنة 375هـ/ 985م، واحتلال فاس أكثر من مرة، ومهاجمة مدن سبتة وطنجة وتيطاوين وقصر مصمودة وأصيلا وحجر النسر، علاوة على الحملات الفاطمية القائمة ضد فاس، مما يعني أن الأدارسة وقعوا ضحية الصراع الفاطميين الأمويين، وجعل مجال سيادتهم ساحة للصراع بينهما، وحفز القبائل النفزية والبرنسية والمصمودية والمكناسية على التحرك طلبا لمجالات جديدة.

لقد تمكنت قبيلة مغراوة الزناتية منذ عام 367هـ/977م أن تقيم بفاس إمارة لها على يد زيري بن عطية المغراوي، وأن تظل متحالفة مع الأمويين حتى بعد سقوط الخلافة الأموية بالأندلس، عبر عدد من أمرائها

(ودوناس بن حمامة، وعجيسة، وفتوح) الذين أسهموا بالتنافس والنزاع بينهم في استيلاء الأمير الحمادي بلقين بن محمد على فاس لمدة وجيزة قبل أن يتم اغتياله وإعادة المدينة لسيطرتهم.

هذا وإن تكن دعوة الأدارسة ودولتهم قد انتهت بعد أقل من قرن ونصف، فإن مجموع ما خلفته من نظم سياسية وقواعد للحكم فضلا عن معالم معمارية ... ليشهد على أثرها البالغ في مجموع محطات تاريخ المغرب الطويل، شواهد ما زالت آثارها حاضرة إلى اليوم سياسيا واجتماعيا ودينيا ...

من مصادر تاريخ الأدارسة

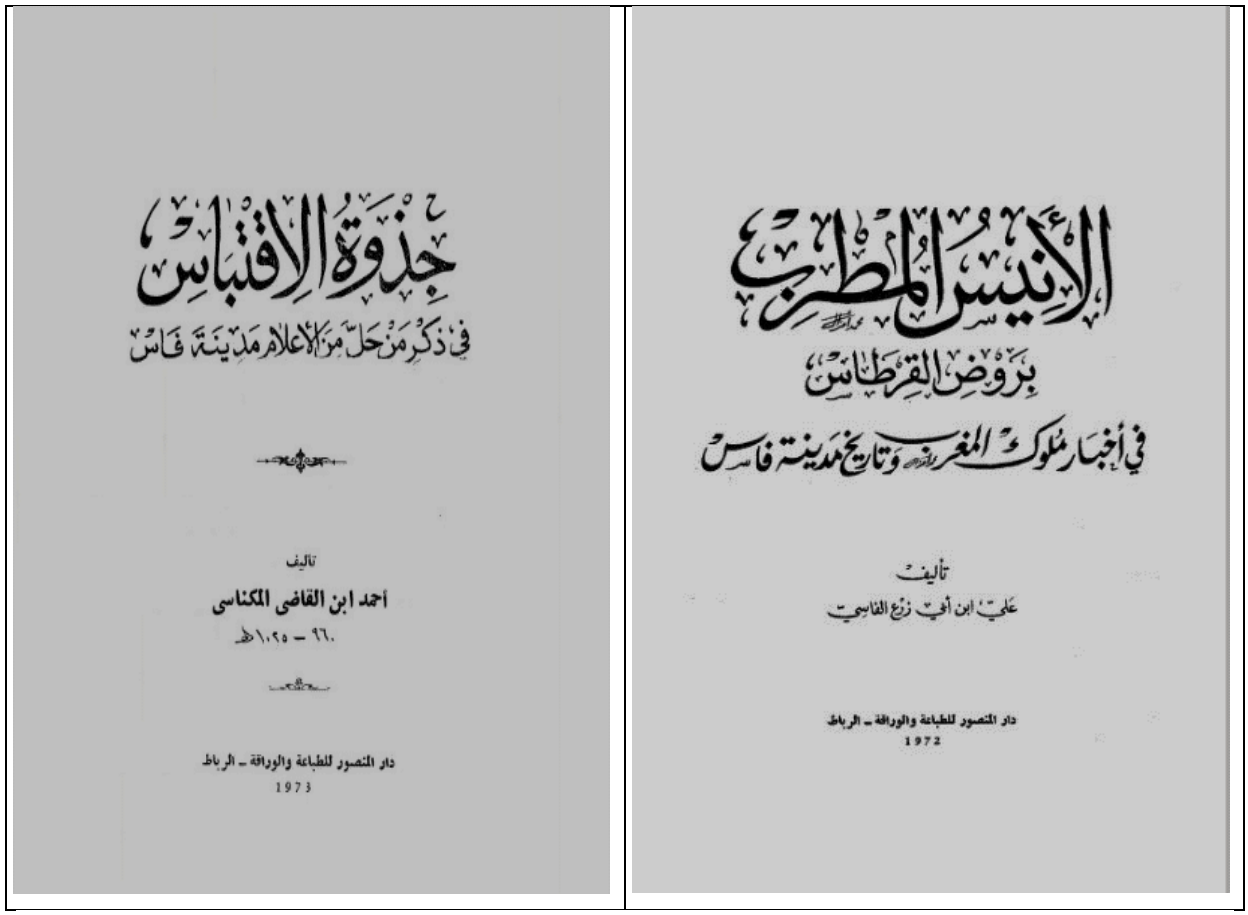

جذوة الاقتباس
في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس

تأليف
أحمد ابن القاضي المكناسي
٩٦٠ - ١٠٢٥هـ

دار المنصور للطباعة والوراقة - الرباط
1973

الأنيس المطرب
بروض القرطاس
في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس

تأليف
علي ابن أبي زرع الفاسي

دار المنصور للطباعة والوراقة - الرباط
1972

الوثيقة رقم 1

من مراجع تاريخ الأدارسة

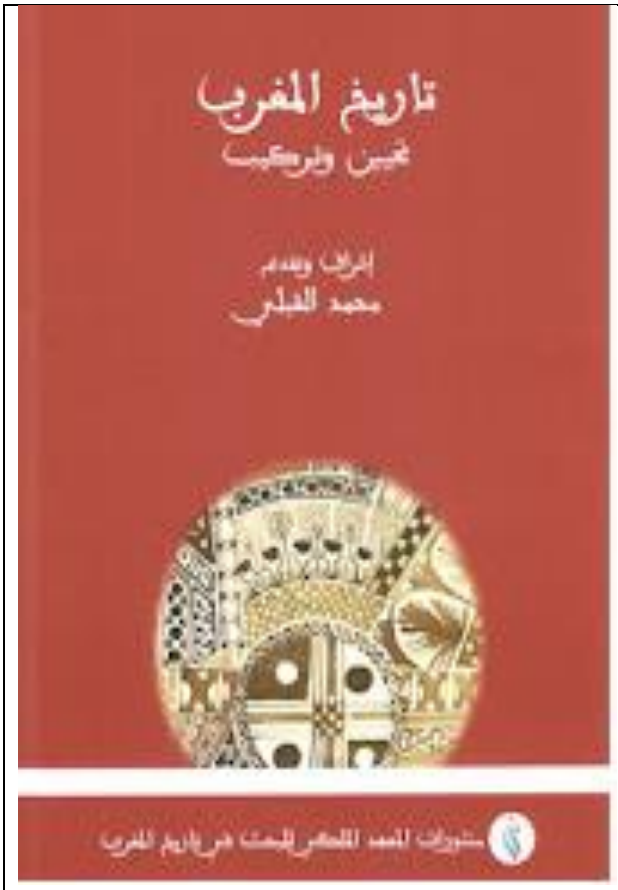

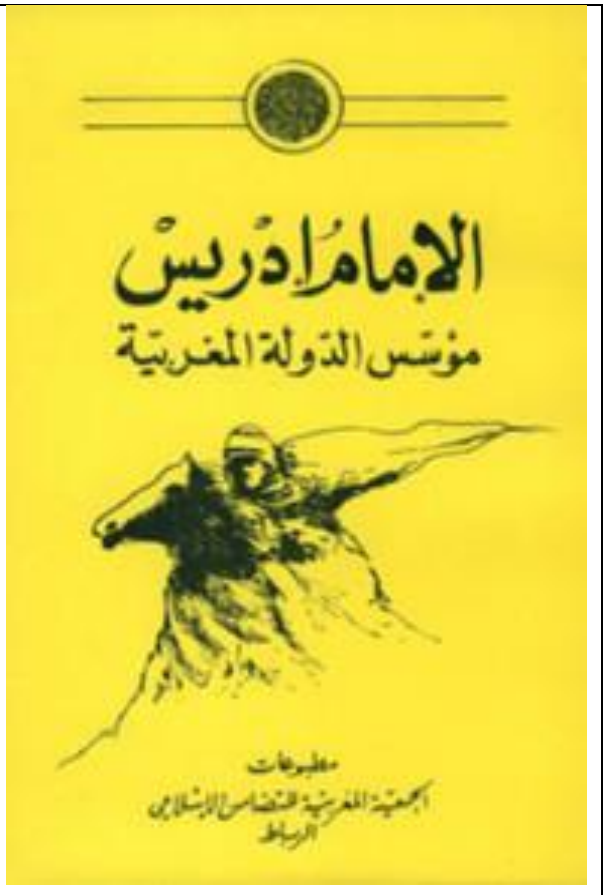

الوثيقة رقم 2

مدينتي وليلي وزرهون

الوثيقة رقم 3

مدينة فاس

الوثيقة رقم 4

تصميم مدينة فاس الإدريسية

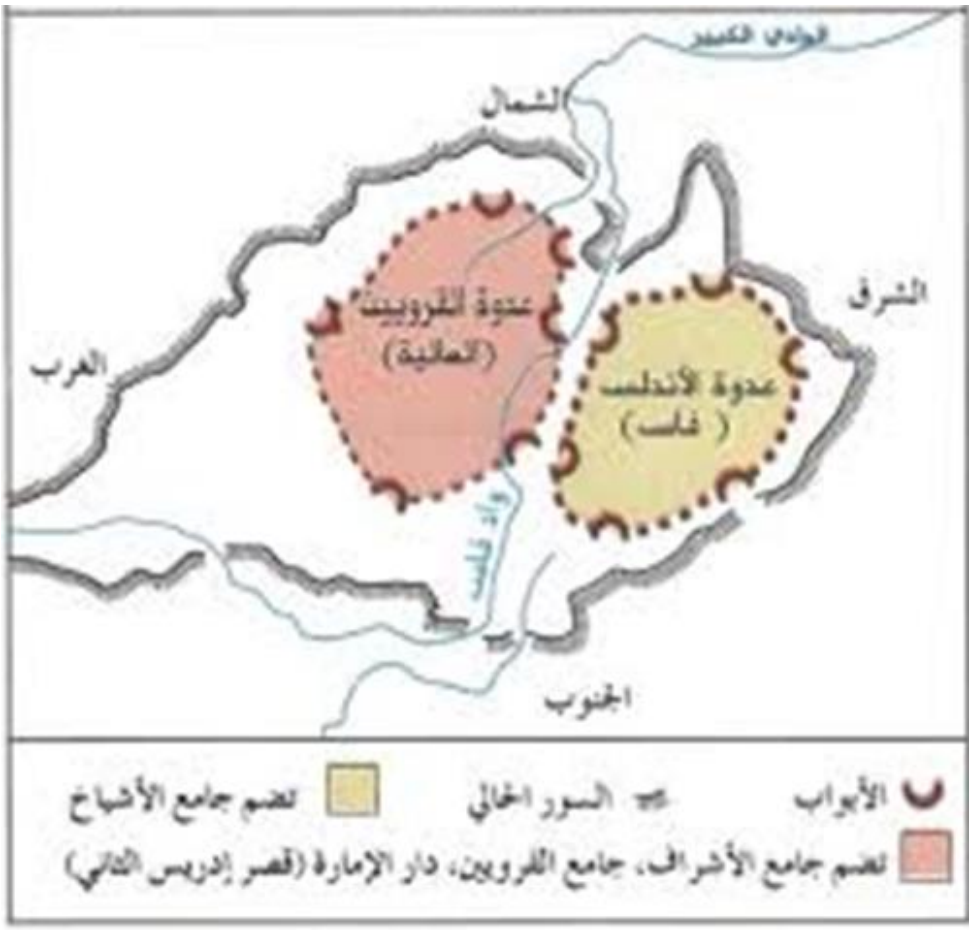

الوثيقة رقم 5

امتداد المجال السياسي لدولة الأدارسة

الوثيقة رقم 6

الخط الزمني لدولة الأدارسة

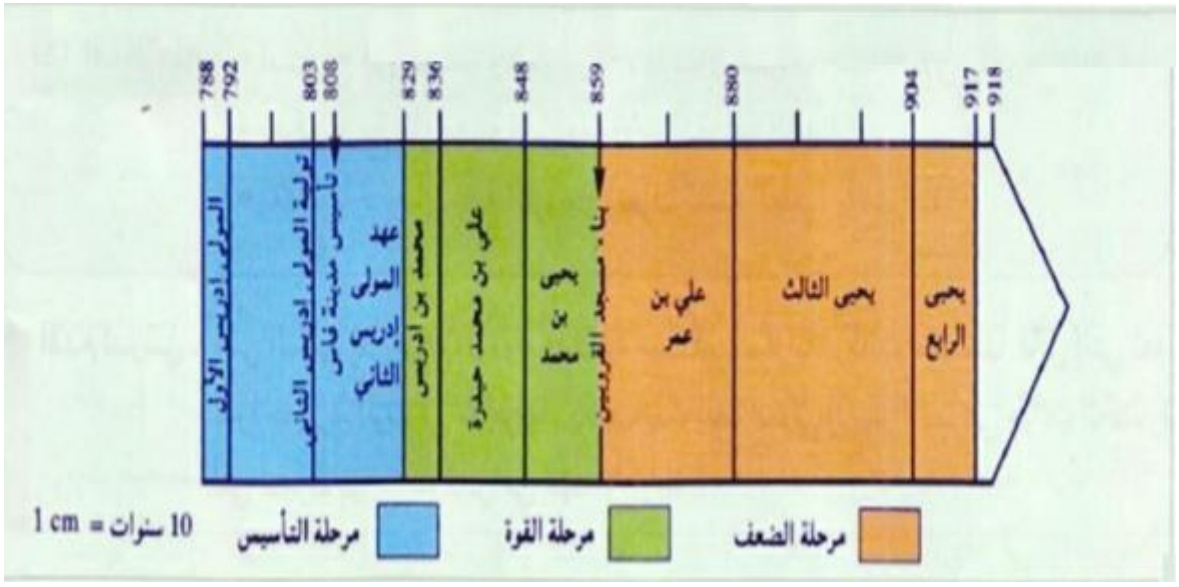

الوثيقة رقم 7

جامع القرويين

الوثيقة رقم 8